الطاعون عام ١٨٣١م وأثره على الحياة العامة في بغداد

د.لقاء شاكر الشريفي
جامعة بغداد - مركز احياء التراث العلمي العربي

المستخلص

عانى العراق بصورة عامة وبغداد بشكل خاص من أخطار انتشار الأوبئة والامراض ولاسيما في أواخر القرن الثامن عشر ، وكان من بين أهم هذه الامراض الفتّاكة مرض الطاعون ، الذي كان له آثار سلبية كبيرة ونتائج مدمرة تؤدي الى هلاك البشر وتدمر المدن فضلا عن شلّ الحركة السكانية والاقتصادية ولاسيما بعد أن يبدأ السكان بالهرب والفرار من هذا الوباء القاتل خشية الاصابة به ، مما أسفر عن ذلك تلف المحاصيل الزراعية لعدم وجود من يرويها ، وتعطل الحركة الاقتصادية المتمثلة بأصحاب المهن والحرف اليدوية بسبب موتهم أو هروبهم من المدينة ، كما أدى انتشار وباء الطاعون الى توقف النشاط التجاري ، وعدم وفود التجار اليها ، فضلا عن تراجع الحركة العلمية بسبب توقف الرحلات العلمية ووفاة الكثير من العلماء لإصابتهم بهذا المرض .

وقد أثّر الطاعون بشكل مباشر على الحياة السياسية حيث عمت الفوضى بسبب موت الكثير من الامراء والموظفين أو هربهم للنجاة من المرض ، من هنا جاءت فكرة البحث بهدف توضيح الآثار الناجمة عن انتشار الطاعون في عام ١٨٣١ على مجمل الحياة العامة في بغداد

Abstract:

Iraq has suffered in general and Baghdad in particular from the dangers of the spread of epidemics and diseases, especially in the late eighteenth century, and was one of the most important of these deadly diseases plague, which had a large negative effects and devastating results lead to the destruction of people and the destruction of cities as well as paralyzing the movement of population and economic, Especially after the population began to escape and escape from this deadly epidemic for fear of injury, resulting in the destruction of agricultural crops to the absence of those who narrate, and the disruption of the economic movement of professionals and handicrafts because of their death or escape from the city, and the outbreak of plague epidemic stopped a And the lack of trade delegations, in addition to the decline of scientific movement because of the cessation of scientific flights and the death of many scientists to infect them with this disease The impact of the plague directly on political life, where chaos was caused by the death of many princes and employees or escape to escape the disease, hence came the idea of research to clarify

the effects of the outbreak of the plague in 1831 on the overall life in Baghdad

المبحث الأول : تعريف وباء الطاعون وأسبابه

أولاً : تعريف وباء الطاعون

أطلق المؤرخون القدماء كلمة الوباء على جميع أنواع الأمراض المعدية الفتاكة التي تصيب الإنسان أو الحيوان ، وعلى الرغم من إطلاقهم كلمة وباء على الطاعون[١] ، إلا أن اغلبهم كان يدرك أن كلمة وباء أشمل من الطاعون ، وأن الطاعون واحدٌ من هذه الأوبئة [٢]، وقد عرّفت المصادر التاريخية وباء الطاعون حسب ما شاع عنه آنذاك ، واصفةً إياه بأنه مادة سمية ينتج عنها بثرٌ وورمٌ مؤلمٌ وأكثر ما يصيب المناطق الرخوة من الجسم ، ويظهر عليه احمرار أو اسوداد أو اخضرار، ويبدأ خفقان القلب بالازدياد في كثير من الأحيان فضلاً عن التقيؤ، كما أنها صنفته على ثلاثة أنواع كالطاعون الدملي والرئوي والدبلي ، ويبدو أن الأخير أكثرها انتشاراً في الربع الاول من القرن التاسع عشر[٣].

أما علماء الطب الحديث فعرّفوه بشكل مفصل، من خلال الاكتشافات والوسائل العلمية الحديثة ، مؤكدين على أنه من الأمراض الوبائية القديمة [٤] ، وهي شديدة العدوى وسريعة الانتشار والفتك ويتسبب بنسبة وفيات كبيرة جداً إذا ما انتشر في بلدٍ ما، وهو في الأصل من الأمراض التي تصيب الحيوانات القارضة كالفئران[٥] ، ومنها ينتقل إلى الإنسان عن طريقين، إما التلامس المباشر مع الحيوانات المصابة أو عن طريق البراغيث [٦] ، فتصاب الغدد اللمفاوية الموجودة في الفخذ والإبط والأذن وتبدأ بالتضخم ، وتنتقل الجراثيم إلى الدم مباشرةً .

ومن ابرز أعراضه: الألم الشديد المصحوب بحمى وقشعريرة مع تقيؤ وعطش شديد ، فضلاً عن صداع وهذيان، وتظهر في اليوم الثالث من الإصابة دمامل سوداء تأخذ بالتضخم شيئاً فشيئاً ، وإذا ما تقيحت هذه الدمامل يكون هناك أملٌ في شفاء المصاب ونجاته من الموت [٧] . أما إذا بقيت صلبة كما هي فإنها تؤدي إلى وفاته على الأغلب في اليوم الخامس من الإصابة ، كما تكون فرصة نجاة المصاب وشفائه كبيرة إذا بقي حياً إلى ما بعد اليوم العاشر ، كما ينتقل الطاعون من منطقة إلى أخرى بشكل سريع ، إذا لم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة لمنع انتشاره ، وهذا ما كان أمرا مستحيلاً مع تردي الخدمات في بغداد وانتشار الجهل ، فضلا عن عدم وجود الطرائق والوسائل الكفيلة بمنع انتقاله من مكان إلى آخر[٨].

ثانيا : الأسباب الرئيسة لتفشي وباء الطاعون

هاجم وباء الطاعون بغداد مرات عديدة بشكل كامل أو في أجزاء مختلفة منها ولاسيما المناطق المحاذية لنهر دجلة ، وقد تزامن انتشار الوباء أحيانا مع فيضان نهر دجلة الأمر الذي يزيد من سرعة انتشار الوباء من جهة فضلا عن تدمير المدينة وشل حركتها من جهة أخرى [٩].

وعلى الرغم من تعدد حالات وباء الطاعون ببغداد المتباينة زمنياً ، إلا أن الأسباب الرئيسة لحدوثها تبقى ذاتها مع تغيرات بسيطة وهي كالآتي:

١_ الأزمات الاقتصادية التي تعرض لها العراق بما فيها العاصمة بغداد في ظل حكم المماليك (١٧٤٩- ١٨٣١) ، التي يرجع بعضها إلى أسباب طبيعية كحدوث الجفاف والجدب والفيضانات والآفات الزراعية والأوبئة والأمراض التي تصيب الحيوانات من ناحية[١٠] ، أو لأسباب بشرية كالحروب والفتن الداخلية وكساد التجارة واحتكار المواد الغذائية ، وعدم توفر الشروط الصحية فيها من ناحية أخرى[١١] ، ومهما كانت أسباب هذه الأزمات ، فإنها تؤدي إلى حدوث القحط والمجاعات التي يخلفها عادة انتشار وباء الطاعون أو بالعكس ، وقد يكون ملازماً لها في أحيان أخرى[١٢] ، ويتضح حدوث ذلك كما هو الحال في طاعون عام ١٨٣١م مع نقص المواد الغذائية التي لا تكفي لسد الحاجة أو تكون غير صحية ويضيف ابن خلدون (ت٨٠٥هـ) أسباباً بشرية أخرى لانتشار وباء الطاعون كالاضطرابات السياسية والفتن وكثرة القتلى وكثرة المجاعات ... وكثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل[١٣] ، وهذا ما كان يحدث مع نهاية حكم المماليك عام ١٨٣١ م بسبب الحروب والصراعات التي تدور بين الحكام ، مما يخلق فوضى سياسية ينجم عنها أزمة اقتصادية ، فتغلق المدينة أسواقها ، وتبدو كأنها مدينة أشباح خالية من السكان [١٤] ، كما حدث في سنوات الطاعون ١٨٠١ – ١٨٠٢ – ١٨٠٣ .

٢_ رداءة المناخ والظروف البيئية :

إن عدم استقرار المناخ ما بين الجاف مرة والرطب مرة أخرى ، فضلاً عن عدم استقرار الحرارة والبرودة وتلوث الهواء ومياه الأنهار في الأوقات التي تسبق مواسم الفيضانات من أسباب حدوث الطاعون ، وهذا ما أكدته بعض المصادر التاريخية في أثناء الحديث عن فيضانات نهر دجلة التي كانت متزامنة مع انتشار وباء الطاعون ، إذ تكون مياه دجلة ملوثة بالوباء وغير صالحة للشرب وإذ ما دققنا في الطواعين التي أصابت بغداد بشكل عام ، نجد أن لنقصان منسوب نهر دجلة أو فيضانه دوراً كبيراً في حدوث المجاعات التي تؤدي إلى حدوث الطاعون [١٥] .

٣_ التوسع العمراني وتزايد أعداد السكان :

إن توسع المدن في بغداد وكثرة البناء العمراني غير المخطط نتيجة لتزايد أعداد السكان فيها ، يؤدي إلى تلوث بيئي بسبب كثرة الأبنية ، وعدم وجود الفسح الخالية التي تسمح بتخلخل الهواء ، مما يتسبب في انتشار الأوبئة التي تودي بحياة الكثير ، ويكون هذا عادةً في المدن الكبيرة المكتظة بالسكان أكثر من غيرها[١٦] ، وقد أكد ابن خلدون على أن التوسع العمراني أحد مسببات انتشار الأوبئة من خلال قوله : "... وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران ... ولهذا فإن الموت يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير " [١٧] .

٤_ عدم وجود الأساليب الوقائية المتطورة لمعالجة الأوبئة والأمراض في بغداد فضلاً عن عدم الاهتمام بالنظافة ، وقيام السكان بإلقاء الأوساخ والقاذورات وجيف الحيوانات الميتة في الطرقات ومجاري الأنهار [١٨] .

٥_ التماس المباشر مع الحيوانات القارضة التي تنتشر في المنازل كالفئران وغيرها ، فهي تشكل احد أسباب الإصابة بالطاعون، ولا سيما أنه من الأوبئة التي تصيب القوارض ومنها تنتقل إلى الإنسان [١٩] .

المبحث الثاني : بغداد ووباء الطاعون عام ١٨٣١م

هاجم وباء الطاعون العراق ومحافظاته بكثرة ، وقد سجلت بغداد أول ظاهرة لحدوث وباء الطاعون في عام ١٦٨٩م ، إذ تفشى الوباء في هذه السنة لمدة خمسة أشهر تقريبا ، حاصدا أرواح عدد كبير من الناس ، حيث قدر العدد الاجمالي للوفيات ١٠٠.٠٠٠ شخص تقريبا من مختلف الطبقات الاجتماعية في بغداد [٢٠]، وعاود وباء الطاعون ظهوره ببغداد في العام التالي ١٦٩٠م واستمر أكثر من ثلاثة أشهر قاتلا ١٠٠ شخص يوميا [٢١] .

وبدأ النشاط الوبائي في العراق خلال القرن الثامن عشر تدميريا ، حيث اجتاح الطاعون مناطق مختلفة من البلاد ، حيث ظهر الطاعون في بغداد عام ١٧٧٢م قادما من استانبول مبيدا عددا كبيرا من سكان بغداد ، وقد وصف المؤرخ البغدادي (عبد الرحمن السويدي) [٢٢] ، أحداث وباء الطاعون والدمار الذي سبّبه لبغداد في رسالة كاتبا ما نصه : " أعلم – أي أخي – أن الدنيا دار نكد لم يسلم من مصابها أحد ، فبغداد والبصرة وما والاهما كان أهلها بالنسبة الى غيرهما قبل حلول الطاعون فيهما في أرغد عيش وأهناه وأعدل وقت وأعلاه ، يد النفاق منهم قاصرة وصفقة الشقاق لديهم خاسرة ..." [٢٣] .

وفي الحقيقة لقد جاء وصف عبد الرحمن السويدي للطاعون مطابقا للواقع إذ بلغت قائمة الوفيات الأولية قرابة (١٠٠٠) شخص في اليوم ، وكانت هذه أكبر موجة وبائية مأساوية في أواخر القرن الثامن عشر تجتاح العراق [٢٣]، فقد سجلت بغداد مع بداية ١٩ كانون الثاني ١٧٧٣م حتى ٦ شباط من العام نفسه معدل وفيات يتراوح بين ٤٠٠- ٥٠٠ شخص ، وقد ارتفع الرقم في ٢٠ شباط ١٧٧٣ م الى ١٨٠٠ شخص [٢٤] .

أضحت بغداد مدينة مهجورة بسبب ارتفاع معدل وفيات الطاعون الذي حصد ثلثي سكان المدينة تقريبا حسب تقرير للسيد كولفيل الجراح الملحق بالمقيمية البريطانية في بغداد في سبعينات القرن الثامن عشر، إذ قدر معدل الوفيات الذي يتراوح بين ٢٥٠.٠٠٠ الى ٣٠٠.٠٠٠ [٢٥] تقربا ، وقد عاود الطاعون الظهور مرة أخرى في بغداد لعدة أشهر من عام ١٧٨٥م ، فانتشرت الجثث في الطريق حتى إن الناس لم تتمكن من دفن بعض موتاها [٢٦] .

ولم يكن القرن التاسع عشر مختلفا عن القرون التي سبقته بسبب تزايد هجمات وباء الطاعون والخسائر البشرية الفادحة ، إذ ضرب الطاعون بغداد مرة أخرى مدة ثلاثة أعوام متتالية (١٨٠١- ١٨٠٢ – ١٨٠٣) مزيلا بذلك العديد من علامات الحياة في المدينة ، حسب وصف المؤرخ العراقي رسول الكركولي، الذي وصف أحداث هذا الطاعون وخسائره البشرية التي كانت تصل بشكل يومي الى ٧٠ شخصا يوميا[٢٧] .

إن التفشي الوبائي الاكثر فتكا للطاعون في تاريخ العراق الحديث كان في عام ١٨٣١ م موضوع الدراسة ، إذ كانت بغداد مركزا رئيسيا لانتشار الطاعون في عموم محافظات العراق ، ولا يمكن تحديد مصدر وطريقة انتقال الوباء الى بغداد ، فقد تكون جلبت عدواه إما من مصر ومن ثم عن طريق سوريا الى السليمانية وكركوك ومنها الى بغداد [٢٨] ، أو من إيران عبر خانقين والسليمانية وراوندوز[٢٩] ، وقد جاء وصف طاعون عام ١٨٣١م في مذكرات أنتوني أن كروفر ، وهو مبشر عاش في بغداد وشاهد حصاد وباء الطاعون في سكان بغداد الذي بدأ من ٢٨ أذار ١٨٣١م لغاية ٢١ مايس ١٨٣١م [٣٠] ، وقد تزامن الوباء مع فيضان نهر دجلة الذي حطم عددا من البيوت البغدادية[٣١] ، وساهم في زيادة انتشار الوباء بسرعة أكبر ، وقد كانت الآثار الناجمة عن طاعون ١٨٣١ وخيمة لدرجة شملت مفاصل الحياة العامة في بغداد .

فعلى الرغم من تعرض بغداد لهجمات عديدة من وباء الطاعون وانتشاره فيها مرات كثيرة ، إلا أن حدة انتشاره وآثاره على سكان بغداد كانت حصيلتها مرتفعة عام ١٨٣١، إذ يعد وباء الطاعون الذي ضرب بغداد هو الأقوى في نوعه من حيث الخسائر البشرية والمادية حسب تقارير المقيمية البريطانية[٣٢] في هذا مع وصول المماليك إلى الحكم في العراق وزيادة التنافس على السلطة ، إذ اتسم حكمهم في بداية الأمر بالقوة والقدرة على مواجهة الأزمات بفضل سلاطينهم الأقوياء الذين عملوا جاهدين على جعل حكمهم يتسم بالقوة والنفوذ الواسع [٣٣] إلا أن ذلك لم يستمر ، حيث أخذت عوامل الضعف تنخر حكمهم على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، حيث كانت آثارها واضحة من خلال تكرار وقوع أزمات الغلاء وانتشار والأوبئة كالطاعون بشكل متتالٍ ، على الرغم من محاولاتهم اليائسة للتغلب على تلك المشاكل. وقبل تناول دراسة وباء الطاعون الذي ضرب مدينة بغداد لابد من الإشارة إلى أن حدوثه كان متكرراً ، وما هو إلا سلسلة طويلة من الطواعين التي حدثت في تلك الحقبة التاريخية ، وكانت متتالية ومتقاربة في أحيان كثيرة ، مما جعل مهمة الحديث عن كل واحدة منها بشكل منفصل أمراً في غاية الصعوبة ؛ لذلك جاءت فكرة دراسة وباء الطاعون في بغداد لعام ١٨٣١ م بهدف تسليط الضوء على الآثار المترتبة عنه التي شملت مرافق الحياة العامة لتظهر الدراسة بشكل أكاديمي متكامل .

كانت التداعيات التي رافقت وباء الطاعون عام ١٨٣١ م كارثية وخطيرة على المستويات كافة، فعلى المستوى السياسي أسهم الطاعون في تهديم وإزالة الحكم المملوكي في العراق ، إذ حرم وباء الطاعون (دواد باشا)، آخر الحكام المماليك في بغداد من قصره وجنوده ، الذين هربوا أو ماتوا بسبب الاصابة بوباء الطاعون [٣٤]، أما الآثار الاجتماعية فقد كانت فظيعة للغاية ، فقد حصد الوباء كليا أو جزئيا أرواح السكان البغداديين دون أن يفرق بين غني أو فقير أو كبير وطفل أو والٍ وخادم ، وأضحت شوارع بغداد مليئة بالجثث الملقاة في كل مكان وأضحى العديد من الاطفال أيتاما وتركوا في شوارع وأزقة بغداد دون بيت أو مأوى [٣٥] .

ويمكن القول: إن وباء الطاعون استطاع أن يقضي على كل التقسيمات والتدرجات الهرمية والاجتماعية ، فقد هاجم الوباء الأغنياء والفقراء على حد سواء ، أما الكارثة الديموغرافية ، وقد كانت مروعة في أرقامها النهائية ، فمن مجموع سكان بغداد عام ١٨٣١ البالغ يومذاك (١٥٠.٠٠٠) نسمة ، قتل الطاعون (١٠٠.٠٠٠) [٣٦] تقريبا من سكان بغداد للمدة من (٢٨ أذار – ٢١ مايس) ، أي بمعدل خمسة وخمسين يوما ، تم القضاء فيها على أكثر من ثلث سكان بغداد مما يوضح أن وباء الطاعون عام ١٨٣١م كان من أكثر الاوبئة فتكا على مر العصور نسبة الى الأضرار الكارثية والإبادة السكانية [٣٧].

المبحث الثالث : أثر الطاعون على مدينة بغداد عام ١٨٣١ م

من الطبيعي أن يكون لانتشار الأمراض ولاسيما الوبائية منها كالطاعون آثار سلبية على مجريات الحياة في المجتمع ، ولا تقتصر هذه الآثار على جانب معين دون غيره، بل عصفت بمختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في البلاد الموبوءة ، إلا أنها تباينت من جانب إلى آخر من حيث الشدة ، ومن وباء إلى آخر[٣٨] .

أولا : أثر الطاعون في الجانب السياسي

كان من أهم التداعيات الخطيرة لوباء الطاعون عام ١٨٣١ م هي في الجانب السياسي ، حيث أدى انتشار وباء الطاعون في بغداد وفيضان نهر دجلة الى إزالة حكم المماليك الذين

حكموا العراق منذ بداية عام ١٧٤٩ ولغاية ١٨٣١ ، إذ أضحت بغداد تسودها الفوضى والمجاعة لاسيما بعد أن هرب بعض ولاتها ، الذين فتك الوباء بخيرة قوادهم وجنودهم وأضحت القصور خالية إلا من الجثث المتعفنة التي ملأت الطرقات والارصفة [٣٩].

ثانيا : أثر الطاعون في الجانب الاقتصادي والاجتماعي

إن حدوث الطاعون يؤدي إلى شل الحياة الاقتصادية في البلاد الموبوءة ، ويتسبب في كثير من الأحيان بخلق أزمات غلاء تودي بحياة الكثير من السكان ، نتيجة لقلة المواد الغذائية أو رداءتها إن توفرت في الأسواق[٤٠] ، يقابلها ارتفاع كبير في الأسعار ، لذلك يضطر السكان إلى أكل لحوم الميتة وجيف الحيوانات كالقطط والكلاب وغيرها، فيؤدي إلى إضعاف المناعة عندهم ولا يقوون على مقاومة وباء الطاعون وغيره من الأوبئة التي تنتشر بالتزامن مع الفقر والبؤس ، فتكثر نسبة الوفيات ، وتنتشر الجثث في الطرقات لعدم وجود من يقوم بدفنها [٤١] . كما كانت الأسواق تضطرب في مثل هذه الظروف ولا سيما بعد أن قلّ وجود الكثير من المواد الغذائية فيها بسبب الفيضان وتلف المحاصيل فلم يكن بالإمكان الحصول على القمح في السوق بأي ثمن في منتصف نيسان عام ١٨٣١ واستمر الحال لمدة خمسة أشهر حتى وصل سعر كيلو القمح في شهر أيلول (٢٥٠) قرشا[٤٢]، كما عز وجود الماء ، فارتفعت أسعار السقاية ، وظلت المجاعة التي رافقت تفشي الطاعون أمرا خطيرا [٤٢]، فكانت الآثار السلبية على الناحية الاقتصادية والاجتماعية أكثر وضوحاً ، حيث ارتفعت أسعار القماش الذي يكفن به الأموات، كما ارتفعت أسعار الأدوية والاعشاب ارتفاعاً ملحوظاً، وزادت أرباح العطارين والحكماء مقابل موت الفقراء من العامة ؛ لعدم قدرتهم على شراء الأدوية والأغذية بسبب انخفاض مستواهم المعيشي والصحي، فيصبحوا طعماً لهذا الوباء [٤٣] .

أدت الأوضاع الاقتصادية السيئة في بغداد بسبب الأوبئة إلى انعدام الأمن وانتشار الكثير من الظواهر الاجتماعية السيئة، كظاهرة الفساد وحوادث السرقة والسلب في الأزقة والشوارع ، فلم يعد الشخص قادراً على الخروج من داره بعد أذان العشاء لأداء الصلاة ولو كان جار المسجد [٤٤]، وهذا كله يقابله لا مبالاة المسؤولين بالحالة الخطيرة التي أمست عليها بغداد وذلك لانشغالهم بكثرة النزاعات والصراعات فيما بينهم ، كما أن انتقال الطاعون إلى الحيوانات في وقتها أدى إلى أضرار كبيرة بالثروة الحيوانية وإنتاج المحاصيل الزراعية، كما حدث في طاعون سنة ١٨٠١ و ١٨٠٢ و ١٨٠٣ الذين ماتت فيهما أعداد كبيرة من الأبقار التي يستخدمها الفلاحون في أعمال الزراعة فضلاً عن موت أعداد كبيرة من الفلاحين خلال تفشي الوباء، وهجرة القسم الآخر خشية الإصابة به [٤٥]، ممّا جعل الأراضي تبقى بوراً من دون زراعة ، فيؤدي إلى قلة الإنتاج الزراعي، ممّا يؤثر سلباً على الجانب الاجتماعي والمعيشي للفرد بسبب عدم وجود دخل كافٍ نتيجة لتوقف أعمال الزراعة، كذلك الحال بالنسبة للتجارة، فإنها كانت تعاني من كساد كبير في مثل هذه الظروف بسبب قلة البضائع الواردة والمصدرة بسبب خشية التجار من الإصابة بالطاعون [٤٦]، إذ ما قدموا، وهذا أحد أسباب تدني المستوى المعيشي للفرد كما لم يقتصر اثر الوباء على الطبقة الفقيرة ، وإنما تعداه إلى الأغنياء ورجال الدولة على الرغم من تمتعهم بمستوى اقتصادي واجتماعي عالٍ ، إذ توفي الكثير منهم في الطاعون الذي ضرب بغداد كأبناء الحكام وبناتهم وزوجاتهم وأمرائهم [٤٧] .

ثالثا : أثر الطاعون على الجانب الثقافي والعلمي

لقد كان وباء الطاعون ذا أثر سلبي كبير على الحياة الثقافية والعلمية في بغداد نتيجة لتوقف الدروس والحلقات لعدم إمكانية التجمع ، خشية من الإصابة بالطاعون من ناحية، وتوقف الرحلة في طلب العلم من البلد وإليه الموبوء من ناحية أخرى ، فضلاً عن وفاة الكثير من العلماء والفقهاء من ذوي الاختصاصات المختلفة بسبب تفشي الطاعون [٤٨] ، إذ يشير بهذا الصدد المؤرخ عبد الرحمن السويدي في كتابه (حوادث بغداد والبصرة) ، عن وفاة العلامة والمفتي الاسلامي الشيخ (صبغة الله الكردي) ، أثر إصابته بالطاعون في عام ١٧٧٣م ، علما أنه من العلماء البارزين في اللغة العربية ولديه العديد من المؤلفات في علم المنطق والفلسفة وتفسير الحديث [٤٩].

كما أشار المؤرخ عباس العزاوي في كتابه إلى بعض الشخصيات العلمية والدينية التي كان الطاعون سببا مباشرا في القضاء عليهم وأبرزهم الشيخ إسماعيل بن أسد الكاظمي أحد علماء الكاظمية ولديه العديد من المؤلفات في الجانب الديني [٥٠].

المبحث الرابع : سبل الوقاية من وباء الطاعون

على الرغم من السعي الحثيث من قبل الدولة والعامة في آن واحد ، لاتخاذ الإجراءات الكفيلة للحد من انتشار وباء الطاعون والقضاء عليه، إلا أن تلك الإجراءات كانت عقيمة ولم تكن بالمستوى المطلوب ، إذ لم تكن توجد أي إجراءات احترازية لتجنب الإصابة بالوباء والحد من انتشاره في مجتمع يسوده الفقر والجهل ويرزح تحت حكم المماليك الذين كانوا يتصارعون على السلطة مما يوضح ذلك تكرار عدد المرات التي ضرب فيها الطاعون بغداد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر [٥١].

إن الاجراءات التي اتخذها الحكام بحق العامة في أوقات تفشي وباء الطاعون كانت لا تتجاوز الدعاء والابتهال الى الله ، ورفع المظالم ، وإزالة المنكر كالزنا والخمر لاعتقادهم أنها سبباً في حدوث الأزمات كنوع من العقاب الإلهي ، ولذلك كان العامة في بغداد يبتهلون الى الله لرفع الوباء عنهم وذلك لاعتقادهم بعدم وجود علاج له، ولاسيما أنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل الوقائية كما في وقتنا الحالي كالحجر الصحي والعزل، وإبعاد الحيوانات خارج المدن وإغلاق المناطق الموبوءة لمنع انتشاره [٥٢].

وعلى ما يبدو أن الدولة لم تتوقف عند ذلك بل كانت تقوم باتخاذ إجراءات اقتصادية عديدة كتوفير المواد الغذائية وتسعيرها ومحاربة الاحتكار ورفع الضرائب ، إلا أن ما حدث عكس ذلك حيث أدى الانتشار الواسع لوباء الطاعون وفيضان نهر دجلة عام ١٨٣١، إلى تزايد الغلاء وارتفاع أسعار الحبوب والقمح في مدينة بغداد وضواحيها [٥٣] ، وفي كثير من الأحيان تكون النتيجة عكسية، حيث تختفي البضائع من الأسواق ، مما يؤدي إلى حدوث المجاعة. ومن الإجراءات الوقائية الصحية التي كان يقوم بها العامة في بغداد عند انتشار وباء الطاعون لتجنب الإصابة به ، عدم الدخول إلى الأماكن الموبوءة وحمامات الأسواق والابتعاد عن التجمعات ، وهذا ما كان ينصح به العلماء والحكماء آنذاك [٥٤].

الخلاصة

يتضح مما تقدم أن بغداد قد تعرضت لهجمات وبائية عديدة خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر، إذ هاجم الطاعون بغداد للسنوات ١٨٠١و ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و١٨٢١

و١٨٢٢ و١٨٣١ ، وقد كان الأخير أشدها خطرا وفتكا من حيث عدد الوفيات في تقارير المعتمدية البريطانية ، إذ هلك بوباء الطاعون ثلثي سكان بغداد ، هذا إضافة الى التداعيات الخطيرة التي خلفها وباء الطاعون على سكان بغداد في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذي يوضح أن الآثار التي خلفها وباء الطاعون لعام ١٨٣١ قد كانت كارثية بكل القياسات ، إذ أسهم وباء الطاعون في إسقاط الحكم المملوكي في العراق ونهاية حكم دواد باشا الذي لم تستطيع اصلاحاته الوقوف أمام هذه الكارثة البشرية .

قائمة المصادر والمراجع :

١. قائمة المصادر والمراجع:
٢. احمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ط٣(مصر: ١٩٦٨م):ج٤
٣. أحمد سلمان محمد : تاريخ العراق الحديث ، ، بيروت ، ٢٠٠٧ ،
٤. جميل موسى النجار : الادارة العثمانية في ولاية بغداد ١٨٦٩- ١٩١٧، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩١،
٥. جيمس بيلي فريزر : رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٢ ، ٢٠١٤ ،
٦. حسين علي المصطفى : الاثار الاقتصادية لفيضانات نهري دجلة والفرات ، مجلة أبحاث البصرة ، العدد ، السنة ،
٧. رسول الكركولي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم ، بيروت ، ١٩٦٤،
٨. ستيفن همسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، بيروت ، ١٩٨٤
٩. سعاد العمري: بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، ترجمة سعاد هادي العمري ، بغداد ، ١٩٥٤
١٠. سلمان فائق بك : تأريخ المماليك الكوله مند في بغداد ، ترجمة محمد نجيب أرمنازي ، بغداد ، ١٩٦١
١١. صفاء أحمد علي : مشكلة المياه في العراق ، بغداد ، ٢٠٠٧
١٢. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، ط٨(بيروت : ٢٠٠٣م) ،
١٣. عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ، ١٨٦٩- ١٩١٧ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ،
١٤. علي شاكر علي : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعراق وفلسطين في العهد العثماني ، بيروت ، ٢٠٠٨
١٣-عباس العزاوي : تأريخ العراق بين أحتلالين ١٧٤٠- ١٨٣١ ، ج٦ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٠٠
١٥. -عبد الكناني : دواد باشا وأصلاحاته في العراق ، صحيفة المدى ، العدد ٣٠٤٥، السنة الحادية عشر ، ٣١أذار ٢٠١٤
١٦. عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم دواد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨
١٧. عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي : تأريخ حوادث بغداد والبصرة ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام روؤف ، ط٢، بغداد ، ١٩٨٧

١٨. عثمان بن سند البصري : مطالع السعود تأريخ العراق من سنة ١١١٨الى سنة ١٨٢٦ ، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ، بغداد ، ١٩٩١
١٩. غامس خضر حسن الدوري ، الكوارث الطبيعية وآثارها في العراق حتى نهاية الدولة العباسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الآداب (جامعة بغداد : ١٩٩٦م) ،

٢٠. قاسم الجميلي : تاريخ العراق الوبائي في العهد العثماني الاخير ١٨٥٠- ١٩١٨ ، ط١ ، بغداد

٢١. كارستن نيبور : رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود حسين الامين ، بغداد ،

٢٢. مجموعة مؤلفين، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة: احمد عمار وآخرون، ط٢(القاهرة ١٩٧٠م):ج٥

٢٣. محمود الحاج قاسم ، الطب الوقائي النبوي ، بحث منشور ضمن كتاب بحوث الندوة القطرية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب (الموصل : ١٩٨٩م) : ج١

٢٤. نهاد علي مجيد : تاريخ العراق الحديث ، بغداد ، ٢٠٠٩، ص ١٠١

٢٥. يوسف درويش غوانمة ، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، بحث منشور في مجلة علوم فصلية (دمشق : ١٩٨٣م) :ع١٣-١٤

قائمة الهوامش :

١. مجموعة مؤلفين، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة: احمد عمار وآخرون، ط٢(القاهرة ١٩٧٠م):ج٥/ص٧٣٧-٧٣٨
٢. احمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ط٣(مصر: ١٩٦٨م):ج٤/ص٤٢٥
٣. يوسف درويش غوانمة ، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، بحث منشور في مجلة علوم فصلية (دمشق : ١٩٨٣م) :ع١٣-١٤ / ص٢٣٤ .
٤. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، ط٨(بيروت : ٢٠٠٣م) ، ص ٢٣٨.
٥. كارستن نيبور : رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود حسين الامين ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ، ص١٣
٦. غامس خضر حسن الدوري ، الكوارث الطبيعية وآثارها في العراق حتى نهاية الدولة العباسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الآداب (جامعة بغداد : ١٩٩٦م) ، ص٢٣٤.
٧. مقدمة ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .
٨. محمود الحاج قاسم ، الطب الوقائي النبوي ، بحث منشور ضمن كتاب بحوث الندوة القطرية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب (الموصل : ١٩٨٩م) : ج١/ص ١٦٣ .

٩. المصدر نفسه ، ص١٦٣
١٠. عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ، ١٨٦٩- ١٩١٧ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٣٣
١١. ستيفن همسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، بيروت ، ١٩٨٤، ص٢٧٦
١٢. المصدر نفسه
١٣. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي : مقدمة أبن خلدون ، ج٣ ، بيروت ، ١٩٩٩، ص ١٨
١٤. أحمد سلمان محمد : تاريخ العراق الحديث ، ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص ٤٣
١٥. حسين علي المصطفى : الاثار الاقتصادية لفيضانات نهري دجلة والفرات ، مجلة أبحاث البصرة ، العدد ، السنة ، ص ١٥
١٦. علي شاكر علي : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعراق وفلسطين في العهد العثماني ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص ٧٦
١٧. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، ج٣ ، المصدر السابق ، ص ٢٠
١٨. حسين علي المصطفى : المصدر السابق ، ص ١٤
١٩. مجموعة مؤلفين : المصدر السابق ، ص ٣٠
٢٠. قاسم الجميلي : تاريخ العراق الوبائي في العهد العثماني الاخير ١٨٥٠- ١٩١٨ ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١٧ ، ص ٢٣
٢١. عباس العزاوي : تأريخ العراق بين أحتلالين ١٧٤٠- ١٨٣١ ، ج٦ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٠٠
٢٢. عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي : تأريخ حوادث بغداد والبصرة ، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص٤٢
٢٣. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص ٤٣
٢٤. المصدر نفسه: ص ٥٥
٢٥. عباس العزاوي : تاريخ العراق بين أحتلالين ١٨٣١- 1872، ج٧ ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٣
٢٦. جميل موسى النجار : الادارة العثمانية في ولاية بغداد ١٨٦٩- ١٩١٧، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩١، ص ٨٠
٢٧. رسول الكركولي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ، د.ت ، ص ١٤٣
٢٨. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص ٣٣
٢٩. المصدر نفسه
٣٠. المصدرنفسه
٣١. حسين علي المصطفى : المصدر السابق ، ص ٧
٣٢. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص ٣٨
٣٣. سليمان فائق بك : تاريخ المماليك الكوله مند ، ترجمة محمد نجيب أرمنازي ، بغداد ، ١٩٦١، ص ص ٢٢-٢٣
٣٤. عبد الكناني : دواد باشا وأصلاحاته في العراق ، صحيفة المدى ، العدد ٣٠٤٥، السنة الحادية عشر ، ٣١أذار ٢٠١٤
٣٥. عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم دواد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٤
٣٦. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص ٤٤
٣٧. المصدر نفسه
٣٨. علي الوردي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٤٥
٣٩. سعادهادي العمري: بغداد كما وصفها الرحالة الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، بغداد ، ١٩٥٤، ص ٥٣- ٥٤

٤٠. عثمان بن سند البصري : مطالع السعود تأريخ العراق من سنة ١١١٨الى سنة ١٨٢٦ ، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ، بغداد ، ١٩٩١ ، ص ٧٥
٤١. جيمس بيلي فريزر : رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٢ ، ٢٠١٤ ، ص ٤٥
٤٢. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص ٢٦٠
٤٣. عباس العزاوي : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٢٣٠
٤٤. سعاد العمري : المصدر السابق ، ص
٤٥. صفاء أحمد علي : مشكلة المياه في العراق ، بغداد ، ٢٠٠٧ ، ص ٥٠
٤٦. المصدر نفسه
٤٧. عثمان بن سند البصري : المصدر السابق ، ص٢٠
٤٨. عباس العزاوي : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٢٤٠
٤٩. عباس العزاوي : المصدر السابق ، ١٨٣١- ١٨٧٢، ج٧ ، ص٩٠- ٩١
٥٠. عباس العزاوي : المصدر السابق ، ١٨٧٢- ١٩١٧، ج٨، ص١١٤- ١١٦
٥١. نهاد علي مجيد : تاريخ العراق الحديث ، بغداد ، ٢٠٠٩، ص ١٠١
٥٢. قاسم الجميلي : المصدر السابق ، ص٣٠
٥٣. المصدر نفسه :ص٣٢
٥٤. المصدر نفسه ، ص٣٥